سبع حبّات مكسّرات في زمن الكورونا

المتروبوليت يروثيوس فلاخوس

نقلتها إلى العربيّة الخورية جولي عطية عيسى

إنّ فيروس كورونا جعلنا نتّضع جميعًا، وبَعثَر مجتمعنا، وأخرجنا من "نعيمنا" القلِق، واكتفائنا الذاتيّ، وفعاليّتنا، وغشاء إيماننا. وفي الوقت ذاته، حطّم استكبار بعض العلماء والسياسيّين. فكلّ واحدٍ منّا، في قلاّيته الخاصّة، يفكّر و"يتفلسف" ويصلّي، ويملأ وقته على نحوٍ خلاّق، ويخطّط. آخرون يختنقون في مساكنهم الصغيرة، متأمّلين في ما قبل فيروس كورونا وما بعده. في هذا المشهد، "أهمسُ إلى شعب الله" ببضعة أفكار، هي "مكسّرات" في زمن الكورونا، أقدّمها بمحبّةٍ إلى إخوتي المتعبين.

١. الاقتصاد والصحّة

إنّ الدولة المسؤولة، تحاول في الأوضاع العسيرة، أن توازن بين الاقتصاد والصحّة الجسديّة. وتصعُب الموازنة في المجتمع القائم على الاقتصاد والصحّة الجسديّة كليهما. إذا تُركَ الناس أحرارًا في التنقّل من أجل تحريك الاقتصاد، سيكون النظام الوطنيّ الصحّي تحت ضغطٍ لا يُحتمل، وستكون حياة المواطنين في خطر. أمّا إذا كانت الدولة مهتمّةً بصحّة المواطنين الجسديّة وبالنظام الوطنيّ الصحّي، فحينئذٍ سيتدمّر الاقتصاد.

إذًا، تحاول الدول، بمساعدة "الخبراء"، أن تُدير المجتمع الذي قد اعتاد أن يعمل، وأن يستمتع بالوقت بعد منتصف الليل، وأن يغادر المنزل، "المنزل الأبويّ" بحسب المقطع الإنجيليّ. صعبةٌ جدًّا هي مهمّة الموازنة بين أوضاعٍ قائمة. وتتطلّب هذه الموازنة الكثير من المعرفة والهدوء، واستيعابًا واسعًا منّا جميعًا.

٢. الحرب والسلم

إنّ الرواية الشهيرة "الحرب والسلم"، لكاتبها ليو تولستوي، تَصِفُ التعايش بين الحالتين وتعاقبهما. يَصِفُ تولستوي حالتَي الحرب والسلم، طارحًا أسئلةً أساسيّةً حول ماهيّة الحرب والسلم، وغرض التاريخ، وخاصيّة كلٍّ منهما.

تولستوي فيلسوفٌ أدبيّ، ويكتب بطريقةٍ أدبيّةٍ وفلسفيّة، واصفًا شخصيّاتٍ تاريخيّةً عظيمة، ويَصِفُ مثلاً فرنسا نابليون وروسيا القيصريّة خلال أزمنة الحرب والسلم. ولكن يبدو أنّ الحرب تسير مع السلم جنبًا إلى جنب، ويمكن للسلم أن يُختبَر في الحرب. السلم هو الوجه المضيء للحرب، والحرب هي الوجه الحزين للسلم!

إنّ هذه المواضيع تطرّقت إليها الفلسفة القديمة ما قبل السقراطيّة، تحديدًا هيراكليتوس الذي تكلّم على المظهر النقيض للأمر نفسه، وأيضًا على الوحدة في التعدّد المتنوّع الوجوه، رغم التعدّد الظاهر فيه. وتحدّث أيضًا عن "الصحّة"، بما أنّ المرض يجعلنا نرى الصحّة "كأمرٍ مستحبٍّ وجيّد"، وأيضًا عن تسلسل الأشياء. لقد تكلّم على "الصيرورة"، وعلى الحرب بصفتها "الأب والملك على كلّ شيء"، ولكن أيضًا على اللوغوس، الذي هو القانون الكونيّ، المبدأ الأسمى الذي يسود صيرورة العالم.

إذًا، ليست الحرب نقيض السلم، وليس السلم نقيض الحرب، بل يتعايش الاثنان. وهذا "الخطاب اللاذع" الذي يُكمل كلّ شيء، يكشف "إقرار الإنسان"، أي "التوافق العميق بين حنكة الإنسان والنظام العقلانيّ في الكون".

أفكّر في هذا كلّه في أيّامنا، مع جائحة كورونا، لأنّنا نرى هذه الحرب العظيمة على الصحّة، أوّلاً في المستشفيات، حيث يوجد فائضٌ من الألم البشريّ؛ وعلى جميع العاملين في المستشفيات، الذين يحاربون عدوًّا غير منظورٍ لا يعرف حدودًا أو قارّاتٍ أو فضاء. ولا ينتشر في الهواء فحسب، بل يدمّر، كمُختطفٍ، خلايا المرضى وأعضاءهم أيضًا. ما نراه في أرض المعركة، خلال المعارك والموت والأمراض والمجاعات، يحصل اليوم في المستشفيات بخاصّةٍ، حيث الضبّاط والجنود هم جميع العاملين في المستشفيات، الذين يحاربون، مع المرضى، هذا العدوّ غير المنظور.

وتجري هذه الحرب أيضًا في البيوت من جرّاء الإقفالات والقيود ضمن أماكن العيش الضيّقة، وأيضًا في المجتمع من جرّاء إقفال المتاجر والبطالة.

مع ذلك، استنادًا إلى قانون "اتّحاد الأضداد"، يمكن أن يسود السلام والطمأنينة حين يملك الإنسان توازنًا عقليًّا وروحيًّا داخليًّا، والذي يُعبَّر عنه بالإيمان بالله، والصلاة، والمحبّة، والتضحية، والرجاء، والنضج، والوفاء.

في هذه الحرب، يمكن للإنسان أن يشعر بالسلام الداخليّ؛ ولكن أيضًا في وقت السلم الخارجيّ، يمكن للإنسان أن يختبر الحرب الداخليّة بشدّة.

٣. وضعان متطرّفان

كلّ صعوبةٍ وكلّ تجربةٍ تسلّط الضوء على المشكلة الموجودة في داخلنا. في الجائحة الحديثة، كُشفَ ضعف مجتمعنا والعائشين فيه، وقد ظهر وضعان متطرّفان.

فمن جهة، يدّعي بعضهم أنّ العلوم الطبيّة يمكنها وحدها أن تساعدنا في معالجة المشكلة. إنّ العلوم الطبيّة، بالطبع، نافعةٌ جدًّا، وتُقدّم الكثير، ولا أحد يستطيع أن يجادل في ذلك. إلاّ أنّها لا تكفي وحدها. إنّ العلوم الطبيّة تتحارب مع الموت، ولكنّها لن تستطيع أن تهزمه في النهاية. الموت هو الذي سيهزمها في النهاية.

للأسف، يقارب الكثيرون العلوم الطبيّة اليوم من خلال ثلاثة مبادئ عائدةٍ إلى عصر التنوير. المبدأ الأوّل هو أنّ "الحياة البيولوجيّة هي الصلاح الأسمى". ولكن ثمّة أمورٌ صالحةٌ أخرى، كمحبّة الآخرين وتفضيلهم على النفس، أي أن يبذل الإنسان نفسه من أجل الآخرين. والمبدأ الثاني هو "اعتبار الإنسان آلةً حيّة". والثالث هو "تأليه المعرفة العلميّة".

إلاّ أنّ الفلسفة الوجوديّة برهنت أنّ وراء ما هو ظاهر، ثمّة أشياءٌ لا تظهر.

يهتف الذين في هذه الفئة قائلين: "علينا أن نفعل ما يقوله الخبراء"، ويعنون بذلك الخبراء في الأمراض المُعدية، وعلماء الأوبئة. نحن بالطبع نجلّ هؤلاء كلّهم، وإنّهم في الواقع مثمّنون في الجائحة الحاضرة، ويجب علينا الإصغاء إلى آرائهم. ولكن ثمّة خبراءٌ آخرون أيضًا، مثل علماء النفس، وعلماء الاجتماع، والعلماء من كافّة الاختصاصات، واللاهوتيّون، والإكليروس. هذا يعني أنّنا يجب ألاّ نقارب الجائحة فقط بمساعدة الذين يعنون بصحّة الجسد، بل أيضًا بمساعدة الذين يعنون بصحّة الإنسان العقليّة، لأنّ الإنسان ليس "آلةً لا نفْس لها".

يقول آخرون، من جهةٍ أخرى، إنّ الله وحده سيُساعد. إنّ الله يتدخّل في حياتنا طبعًا، ويجترح المعجزات في وسط الذين يؤمنون بحقٍّ، لا الذين يؤمنون سحريًّا! إلاّ أنّ الله يعمل أيضًا من خلال العلماء في الطبّ، وعندما يكون هؤلاء غير قادرين على المساعدة، يشفي حينئذٍ الذين يؤمنون. ويعمل من خلال الدواء والطعام، بما أنّ "علّة الوجود" موجودٌ في كلّ مكان. لا ينتهك الله إرادة الإنسان واختياره.

نحتاج إلى تعاضدٍ بين الإيمان والعلم. هذا يُدعى تآزرًا (synergy). لا ننكرنّ العلم باسم الدين، أو الدين باسم العلم. علينا ألاّ نعود، لأيّ سببٍ من الأسباب، إلى العصور الوسطى، حيث اصطدم اللاهوت السكولاستيكيّ الغربيّ بالعلم الذي كان ينمو في ذلك الحين في الغرب.

يميّز القدّيس يوحنّا الدمشقيّ بين "ما يعود إلينا" و"ما لا يعود إلينا" بل إلى الله. ويستخدم القدّيسون العلوم الطبيّة، ثمّ يتركون الأمر لله.

أَجِدُ أنّ الذين يعالجون المشكلات البشريّة علاجًا "أحاديَّ البُعد"، أشخاصٌ خطرون جدًّا. لذلك، نحتاج في أيّامنا إلى أشخاصٍ متوازنين، يتحرّكون بين النقيضين.

٤. طريقة مواجهة فيروس كورونا

يعتمد سلوك الناس على تعليمهم وتربيتهم. جميع المواضيع هي ثمارٌ للتعليم، بما فيه التعليم اللاهوتيّ والكنسيّ. هذا ينطبق أيضًا على طريقة التعامل مع فيروس كورونا.

بعضهم لديه خوفٌ من الموت. إنّه شعورٌ رهيبٌ أن تروا الموت قادمًا. كلّ شيءٍ يهوي، تهوي الأحلام والمساعي والإنجازات. يصير الإنسان أضعف الكائنات. يظهر أمامه أمرٌ لم يكن قد فكّر فيه من قبل. إنّ التعليم الحديث يفترض أنّه سوف يجعل الناس خالدين على الأرض. هو يرتجف أمام الموت، مع أنّ أفلاطون اعتبر أنّ الفلسفة هي "دراسة الموت". إنّ الذين لا يرون الحياة وراء الموت يُصابون بالاكتئاب. أمّا المسيحيّ المؤمن، فيرى أنّ الموت هو الانتقال إلى الكنيسة السماويّة، واللقاء بالمسيح والفائقة القداسة والقدّيسين.

وثمّة آخرون يملكون "شجاعةً أنانيّةً". إنّهم لا يبالون بالمخاطر الموجودة، ويريدون أن ينهوا حياتهم على نحوٍ استشهاديّ، باختناقٍ مؤلم، لأنّهم يؤلّهون أنفسهم، وقدراتهم، ومواهبهم. هذه حالةٌ نفسيّةٌ مرضيّة. يبدو وكأنّهم يناجون أنفسهم.

وثمّة أشخاصٌ يعيشون في الحالتين. لديهم اضطرابٌ ثنائيّ القطب، ما يعني أنّهم يعيشون تعاقبًا مستمرًّا بين نوبات اكتئابٍ وهوسٍ جنونيّ، ويكونون في وضعٍ أسوأ من غيرهم.

إذًا، من المهمّ أن نحدّد كيفيّة تعاملنا مع المسائل المتعلّقة بالفيروس. لقد أعطوا لفيروسٍ محدّدٍ أسماء مختلفة. سُمّي "فيروس كورونا" (الفيروس التاجيّ) بسبب وجود نتوءاتٍ على سطحه تشبه التاج. دعوه أيضًا كوفيد-١٩. قال لي أحد الآثوسيّين إنّهم سمّوه "الفيروس الهدوئيّ". لماذا؟ بسبب النتيجة المترتّبة عنه.

إنّنا نعيش في عزلة، في خلوةٍ ذاتيّة، في تقييدٍ ذاتيّ. وهذا يقودنا إلى دواخلنا. إنّ الإسهاب والنشاط يشتّتان انتباهنا، يوجّهانه نحو الخارج، والنشاطات المستمرّة تجعلنا ننسى المسائل الوجوديّة الداخليّة المتعلّقة بالحياة والموت، والتي ترتبط بأسئلة مَن وماذا –مَن نحن، وما هدف حياتنا؟ إنّنا نناجي أنفسنا في حوارٍ حزين، وقد أُعطينا الفرصة الآن لنُجري حوارًا خلاصيًّا مع الله والمحيطين بنا.

إذًا، نرى عائلتنا، ونفهم قيمتها. ندرس، ونصلّي، ونعيش "النظرة إلى الداخل"، وندخل إلى "الكنز" الذي يقول المسيح إنّه في قلوبنا، ونرى أنّ الحياة ليست مجرّد حياةٍ بيولوجيّة. وهذا نافعٌ للغاية، إذ "عندما يبتعد الذهن البشريّ عن الله، ما هو متوحّشٌ يمسي شيطانيًّا" (القدّيس غريغوريوس بالاماس). يدخل الذهن إلى نطاقه. نرى أخطاءنا ووجهات نظرنا.

وبعد هذا كلّه، نترك أنفسنا لعناية الله وبين يدَي الأطبّاء والجسم التمريضيّ، لأنّنا لسنا خالدين على الأرض. في الواقع، غير حكماء هم الذين "لا يعرفون أنّ الأعمار يقرّرها الله، لا الذين يحدّدون حياتهم اليوميّة" (القدّيس ثيوفيلاكتوس، رئيس أساقفة أوخريدا).

٥. علم النفس الوجوديّ والفلسفة الوجوديّة

لقد نما، في العالم الغربيّ، علم النفس الوجوديّ، ثمّ الفلسفة الوجوديّة، كردّة فعلٍ على التنوير الذي حدّد الوجود بوظائف الدماغ.

إنّ الداعية لعلم النفس الوجوديّ هو فيكتور فرانكل، وهو تلميذٌ لفرويد. في وصفه للحالات الحزينة التي يَجدُ الإنسان نفسه فيها، يعتبر أنّ الإنسان بطبيعته كائنٌ حزين، ولكنّ عظمته تتجلّى في الأسلوب الذي يواجه به الأحداث الحزينة. يتكلّم مرارًا في نصوصه على مثلّثٍ حزين، هو الذنب، والألم، والموت.

هذه ثلاثة أحداثٍ تُحزن الإنسان، وعليه أن يواجهها في حياته، ويجب ألاّ يعتّم طبيبه عليها. لا يستطيع الإنسان أن يتجنّب هذا المثلّث الحزين لأنّه حياته كلّها، أي أنّه مرتبطٌ بوجوده. في الواقع، محاولة إنكار هذه الأحداث الوجوديّة تشكّل عُصاب زمننا، على حدّ قوله: "كلّما حاول العُصابيّ إنكارها، سيخلط بينها وبين ألمٍ آخر".

في الواقع، في كتابه المهمّ "بحث الإنسان عن المعنى"، يشير إلى معسكرَي أوشفيتز وداخاو، حيث سُجنَ هو نفسه ثلاث سنواتٍ كاملة. ومن جملة ما يكتب، يقول إنّه رأى بعض معارفه يتصرّفون كالوحوش، وآخرين كالقدّيسين. ويقول إنّه وجدَ في سترة رجلٍ كان قد دخل غرف الغاز، الصلاة التي كان عليه كيهوديّ أن يصلّيها كلّ يوم.

ويكتب على نحوٍ مميّزٍ قائلاً: "الإنسان ليس واحدًا من الأشياء؛ إنّ الأشياء تحدّد الواحدة الأخرى، ولكنّ الإنسان يقرّر مصيره بنفسه. ما يصير عليه الإنسان –بحسب الموهبة والبيئة– يكون قد صنعه بنفسه. في معسكرات الاعتقال، مثلاً، في هذا المختبر الحيّ، وفي أرضيّة الاختبار هذه، شاهدنا بعض رفاقنا يتصّرفون كالخنازير، بينما كان آخرون يتصرّفون كالقدّيسين. لدى الإنسان الإمكانيّتان كلتاهما في داخله؛ وتحقُّق إحديهما يعتمد على قراراتٍ لا على ظروف. إنّ جيلنا واقعيٌّ، لأنّنا عرفنا الإنسان على حقيقته. فالإنسان هو ذلك الكائن الذي اخترع غرف الغاز في أوشفيتز؛ ولكنّه أيضًا الكائن الذي دخل غرف الغاز منتصبًا، وعلى شفتيه صلاة الربّ أو "اسمع يا إسرائيل".

ويحاول إرفين يالوم، ممثّل علم النفس الوجوديّ والتحليل النفسيّ الوجوديّ، أن يربط بين علم النفس الوجوديّ لفيكتور فرانكل والفلسفة الوجوديّة لنيتشه، في كتابه "عندما بكى نيتشه"، بحثًا عن المعنى في الحياة، وينجح في ذلك. إنّه يفعل ذلك في اللقاء الذي لم يتمّ، بل خلقه يالوم، بين بروير أستاذ فرويد، ونيتشه. وفي هذا النقاش التقنيّ الذي يجري بينهما، يحاول كلٌّ منهما أن يستفيد من آراء الآخر، ما يُظهر أنّ المفهوم العقلانيّ للحياة، والإعلاء من شأنه، يحيّدان الإنسان عن كونه كائنًا يبحث عن المعنى في الحياة، كائنًا يريد أن يَجِدَ معنى اللذّة والألم، ومعنى الحياة والموت.

إنّ هذه المسائل الوجوديّة الرهيبة تنشأ في الحالات التي يفقد فيها الإنسان الدعم الخارجيّ، ويواجه نفسه.

يتكلّم الفيلسوف الألمانيّ هيديغير على أسلوبين للحياة، وهما "طريقة الوجود اليوميّة"، و"طريقة الوجود الأنطولوجيّة". يشير يالوم إلى هذين الأسلوبين، فيكتب قائلاً إنّنا في "طريقة الوجود اليوميّة" نستهلك الأشياء المحيطة بنا ونقسّمها، و"نكون مُعجبين جدًّا بكيفيّة وجود الأشياء في العالم". وفي "طريقة الوجود الأنطولوجيّة"، ينصبّ تركيزنا على وجودنا الشخصيّ لا على الأشياء.

لهذا السبب، تكلّم الفلاسفة على "خبراتٍ حدّيّة (على الحدّ)" "تهزّنا"، لنَخرج من "الحياة اليوميّة"، ونركّز على "وجودنا" الخاصّ. و"الأكثر تأثيرًا" بين هذه الخبرات هو "أن تقفوا وجهًا لوجهٍ أمام موتكم".

ومن بين "الخبرات الحدّيّة" التي تُغيّر نظرتنا إلى حياتنا هي الحداد، واستيعاب موت شخصٍ آخر. في الواقع، عندما نواجه موت الآخر، نواجه موتنا الخاصّ، وهذا يسبّب ألمًا.

إنّ هذا كلّه يُظهر لنا القيمة العظيمة للاّهوت الأرثوذكسيّ، كالنسك، والأسرار، والحياة الهدوئيّة، والذي يعلّمنا أن نواجه الأمور في عمقها، ونتحوّل عن المظهر الحزين، وندخل في شركةٍ مع الله وإخوتنا، لا لنُطيل حياتنا فحسب، بل لكي نغلب الموت في المسيح. هذا هو الرجاء الحقيقيّ.

٦. المؤسّسة المقدّسة والموهبة

الكنيسة هي جسد المسيح وجماعة التألّه. إنّها جماعةٌ مواهبيّةٌ مرتبطةٌ بالعنصرة.

بسبب نشوء مشكلاتٍ إداريّةٍ على مرّ الزمن، حدّدت المجامع المحليّة والمسكونيّة كيفيّة إدارة الكنيسة. إذًا، لقد نمَت المؤسّسة المقدّسة للكنيسة، حيث يعيش الموهوبون الحقيقيّون، والروح القدس "يشكّل بالكليّة مؤسّسة الكنيسة"، ما يعني أنّ المؤسّسة المقدّسة للكنيسة مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بمواهب أعضائها، كما يكتب بولس الرسول في رسالته إلى أهل أفسس.

يدرس باسيليوس تسيغوس، أستاذ العقائد في كليّة اللاهوت في تسالونيكي، في كتابٍ مهمٍّ له اسمه "الموهبة والمؤسّسة"، حياة القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم وتعاليمه المتعلّقة بهذه المسائل، بما أنّه عاش في زمنٍ صعبٍ حصل فيه خلطٌ ومساجلةٌ بين الموهبة والمؤسّسة، وهو نفسه حاول أن يحفظهما متّحدتَين.

يقول الأستاذ إنّ في كتابات الآباء "علاقةٌ متناغمةٌ ومترابطةٌ وحيويّةٌ بين المواهب والمؤسّسات، وأيضًا بين البُعدين المؤسّساتيّ والمواهبيّ للكنيسة".

من اللافت للنظر أنّ القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، حتّى بعد إدانته الظالمة في مجمع السنديان، "أوصى الأساقفة والكهنة والعلمانيّين المؤيّدين له بأن يطيعوا قرارات المجمع ويقبلوها، رغم أنّها كانت ظالمةً له بوضوح. كراعٍ حقيقيّ، كانت تعنيه مسألةٌ واحدة، وظهر ذلك في دعوته إلى تجنّب الانشقاق والانقسام: "تعالوا يا أخوتي وأصدقاء المسيح، أتضرّع إليكم ألاّ تتركوا كنيسته". لقد حثّ أصدقاءه مرارًا وتكرارًا قائلاً: "لا تتركوا الكنيسة".

إذًا، بحسب الأستاذ باسيليوس تسيغوس، "إنّ الترابط والتعايش بين المؤسّسة والموهبة يعني أنّ في حياة الجماعة الإفخارستيّة، لا يمكن فهم مؤسّسةٍ وتطويرها وإدارتها باستقلاليّةٍ عن مواهب أعضائها، ولا وجود لمظهرٍ مواهبيّ بمعزلٍ عن وجوده المؤسّساتيّ الضروريّ".

من وقتٍ إلى آخر، وفي زمننا الحاضر، نَجدُ طبعًا قوانين ذاتيّة الصنع، وتشريفاتٍ مبالغًا فيها. فبعضهم يبالغون في تقدير المؤسّسة الخارجيّة، وأسلوب الإدارة؛ وبعضهم الآخر يبالغ في تقدير المواهب المتنوّعة لأعضاء الكنيسة.

رغم ذلك، لا وجود لمؤسّسةٍ حقيقيّةٍ في الكنيسة تتجاهل الموهوبين، ولا وجود لموهوبين يتجاهلون مؤسّسة الكنيسة. نحن لا نرفض، باسم المؤسّسة، مواهب أعضائها عندما يعملون قانونيًّا؛ ولا نرفض، باسم الموهوبين، مؤسّسة الكنيسة. إذا وُجد أشخاصٌ يرفضون أحدهما، فيكون هؤلاء عائشين في الدهريّة. طبعًا، ثمّة استثناءاتٌ تؤكّد القاعدة.

يجب علينا أن نسعى باستمرارٍ من أجل الوحدة بين مؤسّسة الكنيسة ومواهب أعضائها، كما يفضّلهما القدّيس ديونيسيوس الأريوباغي، على نحوٍ ممتازٍ، في كتابه "حول التراتبيّة الكنسيّة". هذا هو "الفكر الكنسيّ" الشهير، الذي يذهب أبعد من المنظّمة المؤسّساتيّة للفاتيكان، واستقلاليّة المجموعات البروتستانتيّة المختلفة.

مع ذلك، في زمن تشويشٍ وأزمة، نبقى متّضعين في المؤسّسة المقدّسة للكنيسة، مُصلّين إلى الله من أجل تخطّي الأزمات.

٧. المناولة الإلهيّة

إنّ "المؤثّرين في الرأي العامّ" يشيرون غالبًا إلى المناولة الإلهيّة بأسلوبٍ اجتماعيّ فظّ. رغم أنّ "العلماء الاختصاصيّين" يقولون مكرّرين إنّ سرّ المناولة الإلهيّة مسألةٌ لاهوتيّةٌ، وإنّ منظّمة الصحّة العالميّة قد قرّرت أنّ الفيروس لا ينتقل بالابتلاع بل بالاستنشاق، فَهُم ما زالوا يسألون بإصرارٍ إذا كان ممكنًا أن ينتقل الفيروس من خلال المناولة المقدّسة. لديهم هوسٌ عصابيٌّ فيما يخصّ هذا الموضوع، في حين أنّهم لم يحلّوا بعد المشكلات المهمّة الأخرى المتعلّقة بهذه الجائحة، والمتعلّقة بحالة المجتمع العامّة، وبالنظام الوطنيّ الصحيّ.

وإذ إنّنا نحن الذين لدينا قولٌ فاصلٌ في هذه المسألة، وخبرة واحد وعشرين قرنًا، نشدّد بشتّى الطرائق على أنّ ثمّة "خطّ أحمر" بالنسبة إلى الكنيسة فيما يتعلّق بالقدّاس الإلهيّ والمناولة المقدّسة، أريد أن أذكّركم بالطروباريّة التي نرتّلها حين نشترك بجسد المسيح ودمه:

"اِقبلني اليوم شريكًا في عشائك السرّي يا ابن الله. لأنّي لستُ أقول سرّك لأعدائك، ولا أعطيكَ قبلةً غاشّةً مثل يهوذا. لكن كاللصّ أعترفُ لك هاتفًا: اذكرني يا ربّ متى أتيتَ في ملكوتك".

هذه الطروباريّة هي الجواب الأنسب لجميع الذين يتكلّمون في هذا الموضوع. العشاء "سرّي"، يتحرّك أبعد من حدود المنطق، إنّه اختباريٌّ بامتياز، ويمكن "للخبراء" أن يتكلّموا حوله، أي أعضاء الكنيسة الأحياء والقدّيسين. إنّه "سرٌّ" لن نحلّله بحججٍ منطقيّةٍ مع "أعداء" الله، الذين يسعون إلى البحث فيه بواسطة الاستدلال المنطقيّ، ويخبّئون في الخلفيّة عدم إيمانهم وإلحادهم. قد يكون الجواب الأفضل لهم سلوكُ المسيح إزاء هيرودس، أي الصمت المهيب. إلاّ أنّنا نحن المؤمنين الذين نتقدّم إلى هذا السرّ، يجب أن نكون أيضًا حَذِرين ألاّ نعطي قبلةً خائنة، مثلما فعل يهوذا في أثناء توقيف المسيح. فقط من خلال اعتراف اللصّ، الذي تكلّم باللاهوت على الصليب قائلاً إنّ المسيح هو ملك المجد، وتاب، يمكننا أن نتقدّم إلى هذا السرّ.

أبعد من لاهوت هذه الترتيلة الذي تُظهر طريقة "نكراننا" وشهادتنا لأعداء المسيح، يأتي كلام المسيح "لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا دركم قدّام الخنازير، لئلاّ تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزّقكم" (مت ٧: ٦)، أعتقد أنّ الجواب الأفضل هو العمل الليتورجيّ بحدّ ذاته.

في لحظةٍ مهمّةٍ من القدّاس الإلهيّ، يرفع الكاهن الخبز المقدّس، أي جسد المسيح، ويصرخ على مسمعٍ من الجميع: "القدُسات للقدّيسين". بهذا الفعل، يقول إنّ ما يحمله في يديه مقدَّسٌ، وإنّه يُعطى للقدّيسين فقط، ويجيب الناس قائلين: "قدّوسٌ واحدٌ، ربٌّ واحدٌ، يسوع المسيح، لمجد الله الآب". أخيرًا، إنّ القدّيسون هم الذين يؤمنون بالمسيح، ويحفظون وصاياه، ويعيشون بتوبة، أي الذين يدعوهم الكاهن: "بخوف الله، وإيمانٍ ومحبّةٍ، تقدّموا".

إنّهم يعرفون السرّ، هم أصدقاء المسيح، وهم مستوفون الشروط للاشتراك في جسد المسيح ودمه. أمّا الذين يحكمون على الأمور بعقلانيّةٍ، ويتقدّمون إلى هذا السرّ العظيم غير مستوفين الشروط، فهُم "أعداء صليب المسيح" (فيل ٣: ١٨).

هذه سبع "حبّات مكسّرات" في زمن الكورونا، أقدّمها لكم مع القليل من الخمر اللاهوتيّ من أجل التفكّر والصلاة.